سواكن

مدينة سودانية

للبيور زباشي عبد الرحمن زكي
امين المتحف الحربي بالقاهرة

سواكن[1]

« يقع ثغر سواكن على البحر الاحمر على خط العرض الشمالي ٧° ١٩' وخط الطول الشرقي ٢٠° ٣٧' وعلى نحو ٧٢٠ ميلاً من السويس و ٢٨٥ من مصوع و ٢٠٠ ميلاً من ثغر جدة بالحجاز . وهي جزيرة محيطها ميل ونصف ميل ومساحة من الارض أمامها على البر الأفريقي يقال لها « النيف » بينهما في البحر مسافة ٤٠ متراً . وقد وصل بينهما بجسر عام ١٨٧٩ عرضهُ نحو ٨ امتار بناه جوردون باشا . وهي تقع اليوم على بعد اربعين ميلاً جنوبي بورسودان منافستها التي قضت عليها »

سواكن اليوم في حالة احتضار يحرّك أسى النفس فهي في الرمق الأخير من حياتها . لا يزيد عدد سكانها عن اربعة آلاف مع أنهُ وصل في عصرها الذهبي الى ثلاثين ألفاً . يحيط بها سور قديم كان يشتمل على عدة طوابٍ لم تبق منها الا آثارها لتخبر عن جهادها وبناء سواكن مع انها عميقة وصالحة لرسو السفن الكبيرة بيد ان مدخلها الذي يؤدي اليها لا يثق بأي حال . وطراز مباني سواكن عثماني كالذي نلاحظه على موانىء البحر الأحمر الأخرى كجدة ومصوع

وليست سواكن أقدم ثغور الشاطىء الغربي للبحر الأحمر لكنها اشهرها . فقد كانت في أعز ايامها حلقة الاتصال بين بلاد العرب والحبشة ومصر والهند الى بلاد الصين . وزارتها سفن جميع بلاد العالم . وأشار اليها معظم الرحالة من المسلمين وغيرهم في كتاباتهم . ولا يهمنا في قصة هذه المدينة التي احتوت الكتابة عنها ذكر تاريخها الجغرافي الذي يتناقله ابناؤها وتتحدث عنه الأمهات لأطفالهن . او أن نقص شيئاً من حياتها الملبئة بعجائب أيام النبي سليمان او بعض اخوادث الدموية التي اصابت قبيلة البجة حين عاشت في بطون تلالها الغربية منها . بل

(١) اقتبس الكاتب معظم ما كتبه في هذا الموضوع لمقال الكاتب الانجليزي ... نشره في مجلة Sudan Notes and Records بالعددين ١٩ و ٢٠ عام ١٩٣٦ و ١٩٣٧

سنتناول اهم نواحي تاريخها كما يقتبس المؤلف تفاً من يوميات السياسي او الفيلسوف

كانت الاراضي التي شيدت عليها سواكن قبل بعد عطر رحال القوافل الحبشية او السودانية وكانت تنتظرها على الشاطىء السفن المصرية او الاغريقية او الرومانية وأخيراً الاسلامية والعثمانية فتتبادل المنتجات وأصناف التجارة . ولما تمت العلاقات التجارية في تلك الانحاء تحولت سواكن الى قمر نشط من ثغور الطبقة الأولى . ومضت في سيرها من يسر الى رخاء وثروة أيام مصر البطليموسية . ولا سيما في الفترة الواقعة بين عامي (٣٠٠ و ٢٠٠ ق. م.) وازدحمت منطقة الساحل الجنوبي لشاطىء الغربي للبحر الأحمر بالمحطات البحرية. وقد اشتهرت تلك المحطات بتربة اثيلة التي كانت تصاد في أواسط افريقية اذ ذاك او تستجلب من الهند للانتفاع بها في الجيوش الرومانية او المصرية ضمن الاسلحة الثقيلة

وقد عني البطالسة بمنطقة سواكن وشيدوا عليها مصالح السن . ونمت تلك الصناعة التي احتكرها أهالي البلاد مدة طويلة . واشتهر سلطان أسرة البطالسة هناك الى عام ٣٠ ق.م حينما غزا الرومان مصر واستولوا عليها . فوضعوا ايديهم على المستعمرات المصرية التي امتدت على شواطىء البحر الأحمر . واستغلوا مناجم الذهب ثم امتد نفوذهم الى جنوبي عدن . ووزعوا تجارتهم على امتداد الساحل بعد ان انشأوا لها معاقل تحميها كما بنوا أسطولاً تجارياً قضوا به على نفوذ قراصنة البلاد العربية في عام ٥٢ . وقد ترك الرومان آثاراً لهم في تلك الانحاء . و نظن ان صريحاً رومانياً ما زال باقياً بالقرب من سواكن

سواكن المسلمة

وبزغ نجم الاسلام في شبه الجزيرة العربية . وغزا المسلمون مصر وسوريا والعراق . وكانت بعض القبائل العربية قد رحلت في ظروف مختلفة الى داخل بلاد السودان الشرقية واختلطت بسكانها . ولكن لم يتم الاستعمار الاسلامي بسهولة في داخل السودان — فان قبائل البجه مضت في مقاومة النفوذ الاسلامي طيلة خمسة قرون . كانت البلاد في اثنائها في حالة عدم استقرار . وقد عمت الفوضى بشكل ذريع كل المنطقة الشرقية الساحلية من عيذاب [1] الى

(١) ذكر المقريزي ان عيذاب مدينة على ساحل بحر جده (البحر الاحمر) وكانت غير مسورة ومن أعظم مراسي الدنيا بسبب ان سفن الهند والمين تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة وكان الحجاج من مصر والمغرب لا يتوجهون الى مكة الشرفة الا من صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط الى قوص ثم يركبون الابل من قوص ويسيرون هذه الصحراء الى عيذاب ومنها يركبون البحر الى جدة . وكذلك تجار الهند . ولم تزل عيذاب سلكا للحجاج من اهل مصر والمغرب في ذهابهم وايابهم اكثر من مائتي سنة الى عام ١٢٦٢ . وذلك في ايام الملة المستنصر باللة العباسي واتفق الحج في البر الى ان كسا السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري الكعبة ثم اخرج قافلة الحجاج في سنة ١٢٦٨ فقل سلوك الحجاج لهذه الصحراء

الحبشة . وتسلطت هذه الاخيرة على حكم تلك الاقاليم . وأخيراً تمت عيذاب وصارت من الثغور المصرية الهامة . ولسنا نعرف على وجه التحقيق متى عرفت المدينة بأسمها الحالي ولكننا نقول انهُ في نزهة الماثي عام بين ٧٥٠ و٩٥٠ (ميلادية) تمت القرية للصيرة وثغرها الطبيعي لمواجه لها . واكتسبت بالتدريج مرتبة تجارية متواضعة . كانت تعرقلها — من حين الى آخر — ثورات الأهالي الذين كانت الحكومة المصرية ترسل حملات عسكرية لتأديبهم

وقد ذكر الاستاذ الانكليزي « ا ر . ربلسون » في مقال نشره بجريدة الجمعية الافريقية عام ١٩٢٨ . انهُ بعد قتل الخليفة مروان الثاني عام ٧٥٠ اتجهت أسرته جنوباً الى أكسوم عن طريق النيل وسواكن وعقيق . وقد عثر على مقابر اتباع الخليفة الاموي على شاطىء البحر الاحمر وعلى امتداد الطريق الذي اتبعه رجال الأسرة في فرارهم

وفي منتصف القرن الخامس عشر بلغت سواكن درجة المنافسة الخطيرة لعيذاب ثغر الشمال لانها كانت إذ ذاك الثغر الوحيد لتجارة السودان الداخلية بعد ان كانت قرية ساحلية كما أسلفنا القول يلجأ اليها أصحاب السفن في طلب المياه . ثم نمت المدينة وعمرت وزاد عدد سكانها

ومضت الامبراطورية الاسلامية تفسح رقعتها وتزداد قوة وبأساً . ففي عام ١١٧٢ غزا صلاح الدين بلاد النوبة . ودخل أهلها في دين الله أفواجاً . واستولى المسلمون على بيت المقدس . فلفت ذلك أنظار الدول المسيحية الذين اتفقت كلمتهم على إنقاذ حلة صليبية لاستعادته من يد المسلمين . وفي ذلك الحين كانت السفن المسيحية تشن الغارة على ثغور البحر الاحمر مما أثر في تجارة سواكن مدة قصيرة . والى أواخر القرن الثالث عشر كانت سواكن تدين بالطاعة لسلطان مصر . وكان حاكمها خاضعاً لها وقادراً على ادارة شؤونها . وكان سلاطين المماليك على جانب وافر من القوة والجبروت فلم يترددوا في إرسال حملاتهم القوية لتأمين البلاد كلما قام الثائرون ضد الحكم المصري . فانتظمت التجارة وعم الأمن البلاد . وبلغت حدود مصر الى جنوبي سواكن

وفي عام ١٣٦٦ اثناء حكم السلطان شعبان وصلت الجيوش المصرية الى أعالي النيل . وبلغت شاطىء البحر الاحمر الى سواكن . وانتصرت بسهولة على القوات التي قاومتها . ولكن لم تثبت أقدام الحكام المصريين لقسوة رجالهم . وقامت عليهم القبائل وطردتهم من البلاد الى اسوان

ومنذ أوائل القرن الخامس عشر نمت مساحة سواكن نمواً محسوساً . وعاد ذلك الى حالة اليسر التي تمتعت بها البلاد المصرية في تلك الايام . فقد كانت سفائن الاسطول المصري التجاري تمخر عباب البحرين المصريين الابيض والاحمر الى المحيط الهندي . وبلغت ثغور الهند والصين حاملة منتجات البلاد الغنية — وباضمحلال ثغر عيذاب (حوالي ١٤٢٨) أصبحت سواكن الثغر المصري الوحيد على شاطىء البحر الاحمر من جهة الجنوب . ولتخذها الحجاج ممراً لهم في

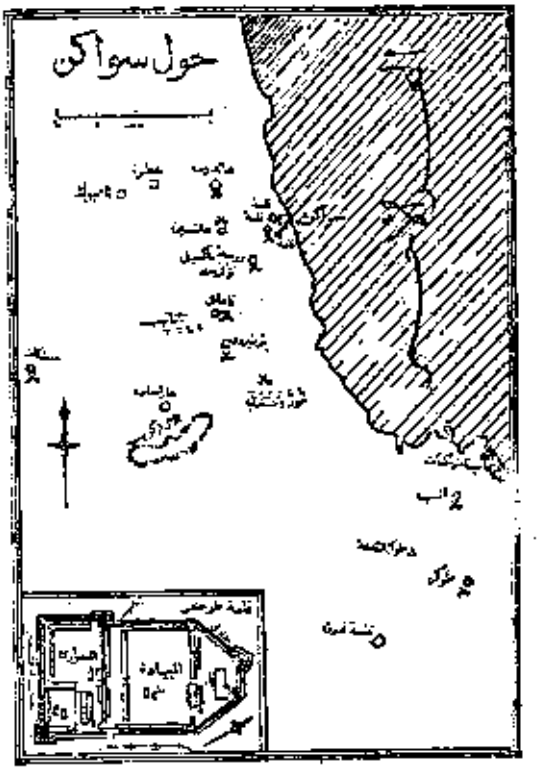
حول سواكن

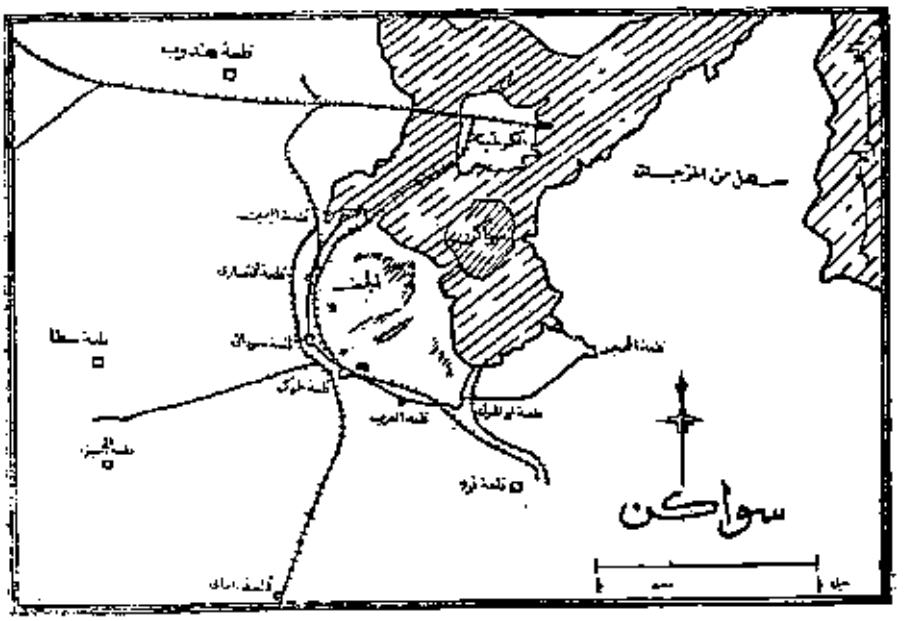
سواكن

طريقهم من مصر الى البلاد العربية واليمن . واحتكرت وحدها تجارة السودان . وقصدتها جميع السفن من الجنوب ومن الشمال. ومنذ العام المذكور (١٤٢٨) الى انشاء بور سودان في أوائل هذا القرن كانت سواكن ميناء البحر الاحمر بلا منافس على الاطلاق

العثمانيون في سواكن

وفي عام ١٥١٧ لما استولى العثمانيون على مصر أرسلوا عدة حملات عسكرية الى الجنوب بقيادة سنان باشا . فوضعوا أيديهم على أراضي المماليك في مصوع وسواكن وجده

وكانت حوادث ذلك القرن عاملاً هاماً في تغيير أحوال ثغور البحر الاحمر أولاً لاحتلال الاتراك الثغور المذكورة . وثانياً لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بواسطة البرتغاليين . فتحولت معظم السفن الأوربية وأخصها سفن البرتغال الى الطريق الجديد

وباستيلاء الاتراك على سواكن بلغها التحسن والنمو . فشيدوا المنازل من حجر المرجان . وعينوا والياً من باشواتهم على رأس قوة من الجند . كما صنعوا في جده ومصوع . واحتفظوا بأسطول جعلوا قاعدته في السويس . ولكي يحافظوا على سلامتهم البحرية في هذه المياه شمالاً حرموا على البرتغاليين دخول البحر الاحمر وجعلوه منطقة خاصة بسفائن السلطان . فلم تتجاوز سفن البرتغال المياه الحبشية . ومهما يكن من شيء فكثيراً ما اصطدمت القوتان المتنافستان . . . تركيا والبرتغال . ففي عام ١٥٤٠ هاجم أسطول برتغالي بقيادة أمير البحر «ستيفانو دي جاما» أسطول العثمانيين ولم يكسب الموقعة أحد الفريقين . وقد وقعت بالقرب من سواكن . وأتيح لاحد رجال الاسطول البرتغالي الدون جوان داكاسترو مشاهدة المدينة وقد وصفها بالعبارة التالية: «من أغنى مدن الشرق» وأنها تضيق بالبضائع والسكان . وانها قريبة الشبه بلشبونه . . .

تمت سواكن على حساب مصوع . لأنها كانت أقرب الثغور الى القاعدة التركية جده . وكثيراً ما استخدمت قاعدة للقوات العثمانية التي غزت اليمن . واكتسبت المنزلة الأولى بين ثغور ذلك الشاطىء . وقد استمر يحكمها الوالي العثماني الى القرن الثامن عشر . وبلغ عدد حاياها الترك في عام ١٦٧٣ حوالي المائة

القرنان الثامن عشر والتاسع عشر

وفي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت للاتراك السيادة الاسمية في البحر الاحمر وعلى البلدان المطلة عليه . وقد تفوقت البحاسة على كل تجارة أخرى بسبب وجود القراصنة وكان همهم الوحيد نهب السفن والاستيلاء على ما فيها . ولم يكن يجرؤ التجار الفرنج على المجازفة بثروتهم خوفاً من ان تقع في ايدي الناهبين

وقد وصف الرحالة « بروس » تجارة سواكن وصفاً دقيقاً ودونه فيما كتبه عن رحلاته بين عامي ١٧٦٨ و ١٧٧٣ . ومع ان بروس لم يزر المدينة مطلقاً الا أنه قد تناول الكلام عن تاريخها . ومعظم البيوت القائمة الى اليوم في سواكن من بناء اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر كمنزل خورشيد افندي الذي شيده صاحبه التركي في عام ١٧٧٠ . وهو ملاصق لفرع البنك الاهلي (القديم) . وأقدم بيوت سواكن ما قام منها في قلب الجزيرة ومعظمها خرب اليوم ولم يبق الا بعض آثار بيت الباشا حيث كان يسكن الوالي مع رجاله . وقد جددت بعض بيوت سواكن في اثناء الاحتلال المصري في القرن الماضي . ويلاحظ هذا التجديد في تنوع طرازي العمارة المصرية والعثمانية . ولما زار العلامة « بورخاردت » سواكن في العام الماضي قال عنها انها تصدر ما بين ألفين وثلاثة آلاف من الرقيق كل عام الى جده

وفي اوائل القرن التاسع عشر فتح محمد علي باشا السودان وضمه الى ممتلكاته وأعاد اليه النظام بعد الفوضى . واستولى على الموانىء الثلاثة جدة وسواكن ومصوع في مقابل جزية وفّاها الى السلطان . وقد زار السير صمويل بايكر سواكن في ١٨٦١ . وكانت اذ ذاك مستودعاً كبيراً لتجارة الصادر والوارد الى مصر . وقد أشار بزراعة القطن حول المدينة والعناية بواردات الصمغ والعاج والجلد وشمع النحل . وقد شاهد سوراً يحميها ضد غارات القبائل المجاورة يحيط به خندق عميق بناه المصريون بالين

في ذلك الحين زار المدينة منازباشا وحاول اقناع تجارها بوضع الميناء تحت الادارة المصرية لتصل اليهم اصناف بضائعهم من مصر مباشرة بدلاً من مرورها بثغر جدة . ولكن لم يوافق التجار على رأيه ورأوا ان ذلك سيسهل مجيء التجار المصريين فيحلون محلهم تدريجاً ويقبضون على ازمة تجارة الثغر . وعلى الرغم من احتجاج هؤلاء التجار تسلمت الادارة المصرية المدينة مقابل زيادة الجزية المصرية ١٢٥٫٠٠٠ دولار . وتسلمت أيضاً ميناء مصوع . وفي عام ١٨٦٥ استعاد الاتراك سلطانهم على بعض ممتلكاتهم العربية مستعينين بحملة من الجيش المصري

أيام الخديو اسماعيل

وفي أيام اسماعيل تطورت أحوال السودان الاقتصادية وشرع في بذل مساع متعددة لاستغلال موارده وقد نجحت معظمها . كانت سواكن ميناء السودان الوحيد ، وكانت في مقام تجاري لا ينافسها فيه أحد للتجارة الواردة الى مصر ومن الهند والحبشة وبلاد العرب واليمن . فضلاً عن أنها الميناء الرئيسي لحجاج السودان وإفريقية الغربية . ولذلك ارتفعت منزلتها وارتقت في خلال النصف الثاني من القرن الماضي

وكان ممتاز باشا اول حاكم للميناء تقلد منصبه في عام ١٨٦٦ . وفي أيامه تقدمت حركة البناء في المدينة وظهرت روح التقدم واضحة . فأصلح بناء محافظها وزاد عليه الجزء العلوي . واقام كثيرون من التجار المصريين بيوتاً كثيرة ونمت حركة التجارة الى حد كبير . وكانت حاجة مصر الى المال الكثير داعية لفرض ضرائب ثقيلة على واردات جركها . ولما لم تكن حركة السفن في الميناء منظمة ارتفعت نفقات التخزين . فهبط ميزان حركتها وقد تحدث « بايكر » عن امكان الانتفاع بالميناء لو تحسنت حركة السفن ونظمت . ولما نشبت نيران الحرب الانكليزية الحبشية في عام ١٨٦٨ فكر أولو الامر في أفضل الطرق التي تتبع لارسال المير والذخيرة الى القوات . فمد خط تلغرافي بينها وبين كسلا . وفضلت ميناء سواكن كقاعدة حربية عن مصوع . وكانت تستغرق الرحلة على ظهر الجمال من سواكن الى كسلا من ١٦ الى ٢٠ يوماً

وقد بلغ عدد سكان سواكن عام ١٨٦٩ ثمانية آلاف فقط . قل عددهم عما كان عليه في اثناء الحكم المصري . وفي العام المذكور افتتحت قناة السويس . فعادت عليها بنفع طيب . ونشطت حركتها التجارية . وقصدها كثيرون من التجار الاوربيين والمصريين

وفي عام ١٨٧٢ زار سواكن الكاتب الانكليزي « سوتوارد » فأشار الى ما يرجى منها . وتحدث ايضاً في الطريقة التي اشتراها بها الخديو اسماعيل من الحكومة الثمانية . وفي ذلك العام تم وصل الخط التلغرافي بينها وبين كسلا . كما وضع السودان الشرقي تحت امرة حاكم واحد . ونقل مقر حكمه الى مصوع واكتفى بأرسال وكيل له الى ثم سواكن . واستبدل « مونزنجير » بك ممتاز باشا الذي سافر الى مصوع . وفي عام ١٨٧٧ تقلد علي رضا باشا منصب مونزنجير بك

وفي عام ١٨٧٧ عين جوردون باشا حاكماً عاماً للسودان . وفي طريقه الى الخرطوم مر بسواكن فأمر ببناء الجسر الذي يربط الجزيرة بالشاطىء الافريقي . فتم إنشاؤه في النصف الاول من عام ١٨٧٨ بواسطة عدد كبير من المذنبين . وكان علي رضا حاكماً عليها

وفي عام ١٨٨١ صدر مرسوم مصري قرر فيه فصل اقليم السودان الشرقي وجعله قائماً بنفسه تحت امرة حاكم عام مستقل عن حكومة الخرطوم . وعين لهذا المنصب اللواء علاء الدين باشا . فتقلده في اوائل عام ١٨٨٢ . وقد قوبل خبر إستبدال علي رضا بالفرح والسرور في سواكن بين جميع الاوساط لانه كان مكروهاً ومتصفاً بصفات كثيرة لم تكن لتجعله محباً بين أهلها

***

وفي يونيو ١٨٨٣ أنشئت لجنة لبحث مشروع انشاء خطوط سكة حديدية في السودان فاقترحت الخطوط الثلاثة الآتية :

١ — سواكن — كسلا — جوز رجاب — الخرطوم . ويخترق هذا الخط اقليم زراعة

القطن . وقد اعترض عليه لسببات هندسية . ٢ — القاهرة — الخرطوم . قامت صعوبات طبيعية أخرى . فرؤي مده الى اسوان فقط . ٣ — سواكن — بربر — الخرطوم . ولم يعترض هذا المشروع عراقيل ما . بيد انهُ لم يبدأ به في تقرير اللجنة . فلم ينشأ خط من الخطوط المذكورة . وتصادف اندلاع الثورة المهدية وشيوعها في شرقي السودان تحت امرة القائد عثمان دقنة وانتشرت في تلك الناحية في عام ١٨٨٣

عثمان دقنة

وكان عثمان دقنة [1] مدير الثورة ورأسها والمحرك الأول في اشعالها من عام ١٨٧٧ . فلما استولى المهدي على « الابيض » سافر عثمان دقنة اليه . وقدم فروض الطاعة . فقلده هذا امارة السودان الشرقي . فعاد الى اسوان حاملاً خطابات المهدي . وكانت قبائل جبال البحر الأحمر لم تسلم اليه أمورها بادىء الأمر ولم تكن مرتاحة الى أعماله . لكنها غيرت موقفها بعقب عودته من زيارة المهدي . فاحترموه وأحلوه مكاناً عالياً في قلوبهم

وقصة ثورة شرقي السودان معروفة ولا محل لسردها بالتفصيل هنا . وان كنا نقول ان عثمان دقنة لقي مع رجاله في اول جهوده ضد الحكومة المصرية هزائم متعددة . لكنها لم تقل من عزيمته ولم تؤثر فيها التأثير الذي كانت تتوقعه الدوائر الرسمية . وفي نوفمبر ١٨٨٣ عين سليمان باشا نيازي حاكماً للسودان الشرقي وحضر الى سواكن . وفي طريقه اليها أقام في سنكات خوفاً من مهاجمته واستدعى حامية سواكن اليه لحراسته . وبينما كانت الحامية سائرة الى الباشا هاجمتها كاثر القبائل وأبادتها ، واضطر الحاكم للاستنجاد برجال حامية سنكات ، وكان نجاح عثمان دقنة مشجعاً لتمادي رجاله في ثورتهم وانضم اليهم قاضي سواكن وبعض اعيانها وكانت النتيجة ان تقدم الى طوكر . وإذ ذاك شكلت قوة من المصريين والباشبوزق والسودانيين وأرسلت من سواكن الى ترنكتات لتخليص طوكر . لكنها هزمت

سواكن بين عامي ١٨٨٣ و ١٨٩٨

إن تاريخ سواكن في فترة الخمسة عشر عاماً التي تتوسط ١٨٨٣ و١٨٨٩ هو وصف مسهب

(١) ولد عثمان دقنة في سواكن . وكان أفراد اسرته يزاولون مهنة التجارة وينقلون الرقيق من أعالي النيل الى بلاد العرب . فلما بلغ سن الرجولة شارك هم العمل في مهامهم . وقد حدث في سنة ١٨٧٧ ان اسرت الطرادة الاكابرية (احدى قبائل سواكن) زوجته . فكان هذا مما حمله على الثورة . فزج به في السجن وحكم عليه غرامة الف جنيه . وكان من الطبيعي ان يتطوع عثمان دقنة على الحقد للانتقام فبدأ بضرب نار الفتنة في سواكن وانتهى الى بربر والابيض وتعاون مع المهدي في ثورته . وأصيب في ١٣ يناير سنة ١٩٠٠ بينما كان معتصماً بجبال الأسيلا فسلم نفسه الى كتشنر وظل الى ان مات سنة ١٩٢٤ (راجع تاريخ حياته في كتاب ...)

للمعارك الدموية التي نشبت بين قبائل السودان الشرقي والقوات المصرية والانكليزية والمهدية. فكم من أبطال زهقت أرواحهم واستشهدوا في سبيل إعادة الأمن والطمأنينة . لعلم ان الثورة المهدية نشبت متأججة في صدور رجالها القاطنين بشرقي السودان في منتصف عام ١٨٨٣ لما قام الزعيم عثمان دقنة تاجر الرقيق وجمع حوله الرؤساء الاقوياء من قبيلة عدندوه والقبائل الأخرى وأغاروا على سواكن ، وكانت للحكومة المصرية حاميات كثيرة موزعة بين أنحاء ذلك الاقليم الشاسع ، بين سنكات وطوكر وكسلا وجيرة والقضارف والجلابات ، وفي نقطتين بشمالي الحبشة ، فلم ينض العام المذكور حتى كانت كل تلك الحاميات مهددة بحصار رجال تلك القبائل . وفي حالة شديدة الحرج

واذا أحصينا الحملات المتتالية التي أرسلت للقضاء على عثمان دقنة وجدناها سلسلة من الهزائم المفكرة . ففي اكتوبر سنة ١٨٨٣ أباد المدد قوة أرسلت لانقاذ سنكات . وفي ٤ نوفمبر هزمت تجريدة أخرى أرسلت الى طوكر وذبح قائدها مونكريف . ولم تكد تصل الى سواكن قوة امداد من القاهرة قوامها ٢٦٢٠ جندي بقيادة الكولونيل فالنتين بايكر حتى سمع رجالها بنكبة سابقة حلت بسبعمائة جندي بالقرب من طمانيب . وكان المنتظر ان يقوم بايكر بالقضاء نهائيًا على قوات الدراويش . لكنهُ أصيب أيضاً بأشنع نكبة أصيب بها الجيش بعد حملة حيكس المعروفة ، وتفصيل الحادث أنهُ في أوائل عام ١٨٨٤ تقدم لتخليص طوكر . فلما وصل الى الطب هوجمت حملتهُ وتعدادها ٣٧٠٠ برجال عثمان دقنة وعددهم ١٢٠٠ . فولت جنودهُ الأدبار ولقوا حتفهم في أبشع صورة . ولم ينج الا ثلث القوة بأعجوبة . ونجا «بايكر» وزملاؤه من البريطانيين ، وغنم العدو ثلاثة آلاف بندقية وأربعة مدافع كروب

البطل توفيق المصري

وفي ٨ فبراير سقطت سنكات بعد بلاء قائدها البطل « محمد توفيق » وجنوده ضروباً نادرة في أعمال البسالة ورجاله الذين استشهدوا جميعاً ، وما زالت ذكراهم المجيدة الشهودة يتغنى بها سكان تلك البقاع . وتتردد من حين الى آخر الكتب الانكليزية والعربية . فلما وصلت أخبار تلك الهزائم المتتالية الى الحكومة الانكليزية أرسلت حملة بقيادة الجنرال جراهام قوامها أربعة آلاف لتخليص طوكر ، فاكتسبت نصراً يذكر في موقعة الطب (٢٩ فبراير ١٨٨٤) وفي موقعة طماي (١٣ مارس ١٨٨٤) التي اكتسحت فيها جموع الدراويش . وفي ذلك العام عين الماجور شرمسيد حاكماً عامًّا للسودان

ثم سقطت القضارف في ايدي الدراويش . وفي العام نفسه تسلمت انكلترا مديرية بربر

وزبلع من الحكومة المصرية . وسلمت هرر للوطنيين وتخلّت مصر نهائيًا عن هذه الأقاليم

وحدثت فيها بعد معارك هاشين (٢٠ مارس ١٨٨٥) وطوفريك (٢٢ مارس) وطماي (٣ ابريل) لكن لم تأت إحداها نتيجة فاصلة . وفي تلك الفترة سلمت مصر تقريباً للايطاليين

وفي ابتداء عام ١٨٨٦ حاول عثمان دقنة القيام بحركات حول سواكن لكنهُ لم يلق تشجيعاً من رجال القبائل وحاربهُ بعضهم . فأجبروه على الفرار وظل مختفياً لا يسمع أحد باسمه عاماً طويلاً وفي ذلك الحين اشتعلت الحرب بين قوات الاحباش والدراويش وقد انتهت بانتصار الآخرين في موقعة ديراسين . ودخلوا جندار

وفي اواخر عام ١٨٨٨ ظهر عثمان دقنة مبتدئاً بحصار سواكن فهزم وارتد الى هندوب وحاول الكولونيل كنشنر على رأس بعض قواته غير النظامية القضاء على قوات عثمان . فلقي خيبة ذريعة وأصيب بجرح خطير في وجهه . واستمر القتال دائراً في فترات متتالية حول سواكن الى ان ارسلت القاهرة قوات نظامية من الجيش المصري وأورطة انكليزية سلمت قيادتها الى السير «فرانسز جرنفل» . فالتحمت بقوات الدراويش . ونالت نصراً باهراً عليها في موقعة الجيزة (٢٠ ديسمبر ١٨٨٨) وقضت على العدو . وفي ٩ مارس ١٨٨٩ حدثت موقعة المتمة . وفي ١٩ فبراير ١٨٩١ وقعت معركة طوكر بعد استيلاء الكولونيل هولدستيت على ترنكتات والطب . وارتد عثمان دقنة الى قرية تيمرين . وفي عام ١٨٩٣ تولى حكمدارية سواكن الكولونيل جنتر ثم خلفهُ الكولونيل وبحت . لقد سادت ذلك الأقليم الفاشوذة الدموية سنين طويلة الى ان كتب لهُ الخلاص بانتصار الجيوش المصرية والبريطانية على قوات المهديين في معركة ام درمان (١٨٩٨)

وبالقضاء نهائيًا على قوات عثمان دقنة استأنفت سواكن — الى حدٍّ ما — حياة الطمأنينة والهدوء . وان بقيت ادارتها خاضعة للاحكام العسكرية . وانتظمت احوال المعيشة فيها غير ان التجارة كانت مقيدة بقوانين . وافتتح محافظها الكولونيل لويد (وقد عين عام ١٨٩٥) مدرسة اميرية في الجيف . وكانت اول المدارس في تلك الأقاليم . وبدأت الحكومة السودانية تعنى بوضع برامج الاصلاحات والتعمير في انحاء البلاد . وقامت على أكتاف جنود الجيش المصري عدة مشروعات عمرانية جلبت الخيرات على أهالي البلاد

العلم المصري

كانت سواكن محط انظار رجال الدولتين لما لها من المنزلة التجارية . فهي كما عرفنا المنفذ الوحيد للقطر السوداني . وكانت الى عام ١٨٩٩ وهي السنة التي وقع فيها الاتفاق الانكليزي المصري خاضعة للادارة المصرية البحتة ، فكانت المدينة الوحيدة التي رفع عليها العلم المصري دون العلم البريطاني ، وكانت تطبق عليها اللوائح والقوانين المتبعة في مصر ، ولا شك ان

هذا الموقف لم يرق الأسد البريطاني في ذلك الحين ، فعمل على اضافة فقرة جديدة في اتفاق عام ١٨٩٩ وبموجبها ادخلت سواكن ضمن الاقاليم السودانية ، ورفع العلمان معاً منذ عام ١٩٠٠

وعند ذلك بدأ بحث عدة مشروعات هندسية لتحسين ثغر سواكن للانتفاع بها ، فوضعت مقترحات شتى تتعلق بالمدينة وثغرها ، وبحث بعض تلك الأمور المستر « كروسلند » في كتابه «حدائق الصحراء والمياه على ساحل البحر الاحمر» ، وتناولها ايضاً المستر ريشموند في مقال له سجل فيه مقترحاته لانشاء مدينة جديدة مع تحسين احوال المدينة القائمة المشتملة على الجزيرة والحيف ، وقدم مقترحاته عام ١٩٠٣ لبحثها وكان من أهمها انشاء حي للاوربيين عند نقطة « جراهام » ، وبناء رصيف بحري يحاذي الجانب الجنوبي للميناء بالقرب من المكان الذي وقع عليه اختيار تشييد مدينة جديدة وبناء محطة نهائية للسكة الحديد ، واعادة تخطيط الجزيرة والحيف من جديد بأساليب حديثة ، وقد رؤي ان تقوم الحكومة بجميع هذه المشروعات بعد شراء الأراضي اللازمة لتنفيذ التعديلات الجديدة ، وقد اتفقت وجهات النظر في ذلك الوقت على ان المدينة بحالها لا تصلح مطلقاً لأعمالها في المستقبل

وفي عام ١٩٠٤ كتب الكولونيل « والستون كنيدي » مدير الأشغال الملكية بالسودان تقريراً عن التعديلات الضرورية لسواكن ، ولأول مرة نقرأ تقريراً تدور اهم نقطه حول فكرة جديدة ، وهي الانتفاع بموقع «مرسى برغوث» الكائن على مسافة أربعين ميلاً شمالي سواكن ولأول مرة نقرأ هذا الرأي وفيه القضاء نهائيًا على سواكن كثغر للسودان ، وقد ارفق المستر « كنيدي » بتقريره تخطيطاً للمدينة المقترحة ، وأشار الى وفرة المياه الغزيرة في خور أرباط القريب منها ، وكانت النتيجة أن لقي هذا التقرير موافقة عامة ، ورؤي في الحال التخلي عن التغييرات المقترحة لسواكن وبناء ثغر جديد في مرسى برغوث ، أما الثغر الجديد فلا يتم بناؤه الا بعد أعوام ، فماذا تصنع الحكومة ؟ تقوم سواكن بدورها النهائي الى ان تؤدي الميناء الجديد مهمتها المقبلة

***

استطاع لورد كرومر بما كان له من نفوذ توفير المال المطلوب لانشاء السكة الحديد بين عطبرة وسواكن ، وفي اكتوبر عام ١٩٠٥ قطع القطار لأول مرة المسافة بين المدينتين في ثلاثين ساعة ، وفي يناير من السنة التالية امتدت السكة الحديدية الى بور سودان ، وهو الاسم الذي أطلق على الثغر الجديد الذي كان العمل جارياً في انشائه ، وكان لورد كرومر قد رأى ان يطلق على المدينة اسم « بورت وجبت » ورأى « وجبت » ان يكون اسمها « بوركرومر » ولكن لم يسل بالرأيين وقرر ان يكون « بورسودان »

وأخيرا . . . . .

قامت سواكن بمهمتها كثغر للسودان مدة ليست قصيرة . انتقلت اليها المصارف وبيوتات الاعمال والتلغراف وشركات الملاحة والنقل — الخ ، وكان موظفو الحكومة وغيرهم من الأوربيين يسكنون البيوت القديمة في الجزيرة حيث أقيم ناد لهم وبعض ملاعب التنس وغيرها وكنيسة انكليزية

وفي عام ١٩٠٥ كسر سد المياه الذي خارج سواكن فتدفقت المياه من خلفه وطغت على الجيف وأغرقته ، فشيد مكانه سور جديد من السمنت المسلح لا يزال قائماً الى اليوم ، وبدأ الحجاج ينقلون منها في سنابك كبيرة ، وباختصار نمت تجارة سواكن نمواً كبيراً ، وكانت معظم واردات للسودان تصل اليه عن طريقها

وفي عام ١٩١٠ انتقلت وآسة المديرية الى بور سودان . وفي ذلك العام افتتحها الخديو عباس ولم يكن نقل التاجر قد تم عن طريق الميناء الجديد . وظلت سواكن تقوم بعملها الاقتصادي على أحسن ما يرام . وجاءت الحرب العظمى فلم تحقق ما كان مرجواً من بور سودان . واستمرت الأولى على تأدية دورها فأطيلت حياتها مدة أخرى . وفي عام ١٩٢٢ بدأت الاشغال الكبيرة تتجه ناحية بور سودان . وانتقلت فجأة منزلة سواكن الى زميلتها الجديدة بور سودان .

الدور النهائي

جاء دور السقوط النهائي لسواكن . فأصابها الاهمال والنسيان . ولما اقتربت من قبرها سنيتة كبيرة . فاغتال وجهها الخراب والشقاء . وبدأت تتحول عمائرها الشرقية الى آثار خربة او أكوام من الانقاض . وخصص مبلغ ١٥٠ جنيهاً في ميزانية الحكومة للاحتفاظ بمبانيها . وتقي « الجيف » ما لاقته الجزيرة من اهمال . وتحولت أسواقها العامرة الى أماكن خالية . وتحول سجنها الى مصنع وأصبح البنك الاهلي استراحة . وعطلت اعمال الكورنتينا فلا تؤدي الا أثناء موسم الحج

كان لسواكن المدينة السودانية حقاً طابعها الخاص التي امتازت به على جميع مدن السودان ، ولكن انتهت حياتها بعد ان ادت دورها ، واختلسته زميلتها المصرية عبداب مدة الى ان جاءت بور سودان ، فاختلسته هي ايضاً ، ولن تقوم لها قائمة بعد اليوم ، فقد ادت رسالتها كثغر شرقي ، وسوف لا ينسى المؤرخ السوداني ماضيها المجيد ، ووقتها وملاحمها ومن استشهد في بنائها من الابطال ، كذلك لا يغفل عنها رجل الاقتصاد ، وما كانت عليه من مقام فريد